



الظواهر النحوية في قراءة الكوفيين (حمزة والكسائي) - اتفاقا وتفرّدا -

The Grammatical Phenomena in the Readings of the Two Kufan Reciters (Hamza and Al. Kisa'i) in Agreement and Uniqueness

عبد القادر بن فطة*

جامعة معسكر (الجزائر)

abdelkader.benfetta@univ.mascara.dz

تاريخ النشر: 15.07.2026

تاريخ القبول: 11.06.2026

تاريخ الاستلام: 09.05.2026

ملخص:

لم يكن إقبال حمزة والكسائي على الحركة القرائية غريبا على البيئة التي ترعرعا فيها، فقد شاعت مجالس الإقراء بالكوفة، ممّا أسهم في تعميق هذا العلم وترسيخه في ذهنهما. عاشا مددا في أكناف كتاب الله، واستظلا بظله، ونالا منه الكثير ما يحيل حياتها القرائية إلى ذخيرة يتمتع بها طلبة العلم. مع تقدّم الوقت كانت اللغة الراقية تترسّخ في ملكتهما حتى نمت وتولّدت منها ثروة قرائية ظلّت علامة إيجابية تشهد لهما بناصية أصيلة، واستجابة لمؤثرات التي تفرضها لغة القرآن فضلا عن الحركة النحوية ودورها في إخصاب قراءتهما. وضعا الظواهر النحوية في إطارها المناسب ترفدها عدّة لغوية فيها نزوع واضح إلى الفصاحة لا تمثله الجرأة اللغوية المتهوّرة، فاقتدارهما هو الذي تدين له اللغة طواعية واستجابة لمقاصدهما دون أن يصل ذلك إلى حدّ العبث بضوابطها. إنّ قراءتهما لم تكن قراءة اعتباطية إنّما كانت منطلقا علميا صحيح نهجه في كل الظواهر النحوية، ولم تكن طفرة خالية من الإتيان، وإنّما كانت إضافة مشعّة في الحقل القرائي.

الكلمات المفتاحية: الظواهر النحوية؛ علم القراءات؛ حمزة والكسائي.

Abstract:

Hamza and al-Kisa'i's embrace of the recitation movement was not unusual, given the environment in which they grew up. Recitation circles were prevalent in Kufa, which contributed to deepening and solidifying this knowledge in their minds. They lived for extended periods immersed in the Quran, finding shelter in its teachings and gaining from it a wealth that turned into a stash students of knowledge would enjoy. As time progressed, their refined language skills deepened, developing into a rich recitation tradition that remains a testament to their authenticity and responsiveness to the influences of Quranic language, as well as the role of grammar in fertilizing their recitation. Hamza and Al-Kisa'i placed

* المؤلف المراسل.

grammatical phenomena within their proper framework, supported by a linguistic equipment that clearly leaned towards eloquence, not exemplified through a reckless linguistic audacity. Their mastery is such that the language willingly submits to their intentions without ever violating its rules. Their reading was not arbitrary but rather a sound scientific approach applied to all grammatical phenomena; it was not a mere leap devoid of precision, but a radiant contribution to the field of recitation.

Keywords: Grammatical phenomena; Science of Quranic readings; Hamza and Al-Kisa'i.

1. مقدمة

اهتمّ حمزة والكسائي بالظواهر النحوية لوضع طمأنينة المتعلّم بمنأى عن شذوذ القراءات، وجرّه إلى حظيرة لغة القرآن والفصاحة العربية لأتّهما يعجّان بالثروة اللغوية. وتحت هذه الزاوية الفاضلة بأشعتها فمذهب القارئ هو مذهب حيّ خليق بأعظم الاهتمام، وأشدّ العطف نحو عملية السموّ بالنحو نحو حقيقة علمية يضعها المهتمون بعلم القراءات موضع التطبيق في علاقتهم بالتراث العربي الإسلامي. إنّ تركة الرجلين القرائية ثريّة ومتنوّعة (النحو، الصرف..) نهضت لدهما في المقام الأول لغة القرآن التي تعطي جملة القوانين التي من شأنها أن تقوم العقل وتسدّد اللسان.

تكمن أهمية هذا الموضوع أنّه ترعرعت في حضن القرآن الكريم، نلمس فيها ملكة القارئ من خلال هذه الظواهر النحوية التي تدلّ على ضرورة الاعتراف بقيمتها التي يدركها متذوّق العربية، إنّها خاصية تجري في آيات القرآن الكريم في تناسق كامل. ومن الدراسات التي وقفت عندها: دراسة في النحو الكوفي لمختار أحمد ديرة، والمدارس النحوية لخديجة الحديثي

اتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي للوقوف على طريقة القراءة التي توصّل إليها القارئان والتي لعبت دورا جليلا في نهضة هذا العلم، ولنا فيهما صورة المتمكّن من إخصاب قراءته حين ربطا بين الظواهر النحوية والألفاظ الفرشية. إنّ مذهبيهما القرائي عبّر عن مستوى النضج الذي بلغاه بملكتهما، ومدى إسهامهما في تطور علم القراءات، وقد بدا اجتهداهما ذا تأثير عميق في الشغوفين بالقراءة.

السؤال المطروح: فأيّ موقف من هذه المسألة كان الكوفيّان دقيقين في التغيرات النحوية، وأمينين حرصا على سلامة اللغة، وبقاء أواصر النحو مشدودة إليها، وحجب دواعي الشذوذ والتراخي؟

2. علاقة النحو بحركة الإقراء بالكوفة

الوقت الذي كانت البصرة منصرفة إلى إرساء قواعد النحو، كانت الكوفة مهتمة بعلوم القرآن كالفقه وعلومه التي عرف بها أهل العراق، وتمركزت حول فقه أبي حنيفة (150 هـ)، ورواية الحديث وتدوينه، وعلم القراءات التي شاعت على أيدي ثلاثة قراء في العالم الإسلامي، وهم عاصم بن أبي نجرود وحمزة والكسائي، بيد أنّ الاتصال بين الحاضرتين البصرة والكوفة ضئيل (فليس غريبا إذن أن تنتقل هذه الدراسة من البصرة إلى الكوفة، إمّا مع الذين شدّوا الرّحال من الكوفة إلى البصرة طلبا للعلم، ثمّ رجعوا

إلى الكوفة، وإما مع الذين هاجروا من البصرة ليتخذوا من الكوفة دار إقامة⁽¹⁾ فالكوفيون كانوا يأخذون النحو عن الخليل حتى ظهر أبو جعفر الرُّؤاسي الكوفي (148 هـ) الذي كان معاصراً للخليل؛ لكنّه أخذ النحو عن أبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر الثقفي، إضافة إلى هذا الرأي هناك من يعزوه إلى الكسائي وتلميذه الفراء (فهما اللذان رسما صورة هذا النحو ووضعاً أسسه وأصوله، أعداه بحذقهما فطنتهما لتكون له خواصّه التي يستقل بها عن النحو البصري، مرتبين لمقدماته، ومدققين في قواعده، ومتخذين له الأسباب التي ترفع بنيانه)⁽²⁾.

إنّ ثمرة نضج النحو العربي ومراقبة قواعده كانت بين أحضان القراءات القرآنية، وكان للصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (32 هـ) فضل في نشرها بالكوفة، فقرأ الكوفيون عنه ورووا حروفه (فلم تزل قراءة عبد الله بالكوفة لا يعرف الناس غيرها، وأول من أقرأ بالكوفة القراءة التي جمع عثمان رضي الله تعالى عنه الناس عليها أبو عبد الرحمن السُّلمي)⁽³⁾ (السُّلمي 74 هـ) الذي قرأ على ابن مسعود، وحمزة (158 هـ) أخذ من جعفر بن محمد الصادق هذا العنصر الحجازي، أمّا غير الحجازي أي العنصر الكوفي فنذكر سلمان بن مهران الأعمش، والكسائي (189 هـ) أخذ عن حمزة. فالقراء الكوفيون من أجود القراء في الأمصار انتقاء للفصيح من الألفاظ وأيسرها على اللسان في النطق. فالقراءات وجدت موطناً جديداً بالكوفة، فقرأوها استطاعوا تقديم جهوداً جبّارة وعلى رأسهم حمزة وتلميذه الكسائي اللذان كشفّا بأنّ القرآن هو ذروة الكمال اللغوي، فبحثا في ارتقائه اللغوي عن قواعد نحوية تطبّق على الظواهر بغية إعطائها مدلولاً جديداً في نطاق أصالته.

إنّ احتضان الكوفة مثل هذين القارئين هيّا الحركة الحرّة الكريمة للقراءات القرآنية، وجعلها شعلة علمية متوهّجة، وجذوة العطاء القرائي، هذا دليل على الاعتزاز باللغة العربية الفصيحة والمحافظة على مقوماتها وتأكيد لبقائها بعيدة عن اللحن. ولما كانت القراءات القرآنية تتطلّب من أهلها نباهة وكياسة لكي يجتنبوا القراءات المخرجة استلزم قوّة اختيار الألفاظ، والتميز الذكي لارتشاف المعرفة الموسوعية لجهود القارئ، كانت تلك هي رغبتهما للتعرّض للمسائل المهمّة لاستخراج منها ما ينطوي من حقائق نحوية يكتشفان مقدار فرشهما، وما يحمله من طاقات فعّالة مبعثها خوارق لغة القرآن الكريم. فالمبحث المعرفي واسع يعكس حجم النحو وإبراز دلالاته، من هنا انصبّ اهتمام القارئ في ثنايا عملهما على إنجازات مدرسة الكوفة، وما توفّر لهما من قواعد نحوية لتناول الحكيم للظواهر النحوية وصولاً إلى ما يطمئنان إليه، ويثقان به تقرّبهما إلى الطموح الدائم الذي يواكب أهل العلم، وهو أمر اجتمعت عليه قناعتهما وروافدهما العقديّة وتطلّعاتهما المستقبلية.

(1). المخزومي، مدرسة الكوفة، ص 65.

(2). شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 154.

(3). ابن مجاهد، السبعة، (د.ت)، ص 68.

ما جاءت قراءتهما إلا تعبيراً عن قدراتهما العلمية المتميّزة أوصلتهما إلى بناء نسق قرآني يعزّز مشروعية فرشهما في علاقته بالنحو، أرسى القارئان دعائم قراءتهما على أسس علمية أخذت من النص القرآني منطلقاً لهما، قراءة استقرت على بساط الاعتراف متبادل بين الفرش والنحو، فنجحاً في توفير العوامل المساعدة على نضوج العلاقة التي كانت وراء قيام مدرسة الكوفة. وفي هذا الصدد نقف عند بعض الظواهر النحوية التي تميّزت بها مدرسة الكوفة للإقراء من خلال حمزة والكسائي للوقوف على حقيقة الظواهر النحوية التي توصّلا إليها.

اختلف الكوفيون والبصريون في ضمير الفصل الذي يشترط فيه ثلاثة شروط أن يكون من الضمائر المنفصلة المرفوعة، وأن يرد بين المبتدأ والخبر، وبين اسم وخبر النواسخ، وأن يقع بين معرفة ونكرة أو معرفتين. جعله الكوفيون عمدة وله محلّ من الإعراب، وعند البصريين فصلاً لا موضع له من الإعراب (فالفصل من عبارات البصريين كأنه فصل الاسم الأول عما بعده وأذن بتمامه وإن لم يبق منه بقية من نعت أو بدل إلا الخبر لا غير والعماد من عبارات الكوفيّين كأنه عمد الاسم الأول وقواه بتحقيق الخبر بعده)⁽¹⁾ يسميه سيبويه وصفاً، ويمكن التخلي عنه (إنّ العماد عند الكوفيّين الذي يسميه البصريون الفصل يجوز حذفه من الكلام ولا يختل معنى الكلام بحذفه ألا ترى أنك لو حذفتم العماد الذي هو الفصل من قولك كان زيدٌ هو قائمٌ فقلت كان زيدٌ قائمٌ لم يختل المعنى)⁽²⁾ ففي قوله تعالى: (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ) المائدة 119 حلماً (الرَّقِيبَ) قرئ بالنصب والرفع، فالبصريون يعدّون (أَنْتَ) ضمير فصل لا محلّ له من الإعراب دال على القصر، و(الرَّقِيبَ) خبر كان، أمّا الكوفيون فضمير منفصل في محل رفع تأكيد للضمير في (كُنْتُ)، جوّز الكوفيون العطف على الضمير دون إعادة الخافض قال تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ - وَالْأَرْحَامَ) النساء 1 (قرأ حمزة الأرحام بخفض الميم، عطفاً على الضمير المجرور في (به) على مذهب الكوفيّين)⁽³⁾ (لعلّ التخرّيج اتقوا الله في الأرحام، واستند الكوفيون في تأييد الجرّ على قول الشاعر:⁽⁴⁾

فاليومَ قرّبتَ تهجونا وتشتّمنا فاذهب فما بك والأيام من عَجَبٍ

فجرّ (الأيام) عطفاً على الكاف في (بك)، والتقدير بك والأيام، كما احتجّوا لهذه القراءة بإضمام الجار، وهذه القراءة تحمل تكريماً وتنويعاً لشأن الأرحام، فيها تكملة لمعنى الآية التي قبلها؛ ولكنّ البصريين قبحوا هذه القراءة وعدّوها لحناً، وأدخلوها في دائرة الشذوذ، وهو نادر في الاستعمال، وآثروا النصب عطفاً على اسم الله التقدير (اتّقوا الأرحام أن تقطعوها) (أمّا احتجاجهم بالآية فلا حجة لهم فيه من وجهين أحدهما

(1) ابن يعيش، شرح المفصل، 110/3.

(2) الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ص 295.

(3) البناء، إتحاف فضلاء البشر، ص 501.

(4) سيبويه، الكتاب، 383/2.

أنَّ قوله وَالْأَرْحَامَ ليس مجروراً بالعطف على الضمير المجرور إنّما هو مجرور بالقسم وجواب القسم (إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) والوجه الثاني أنَّ قوله وَالْأَرْحَامَ مجرور بياء مقدّرة غير الملفوظ بها والتقدير وبالْأَرْحَامِ فحذفت لدلالة الأولى⁽¹⁾.

إنَّ علاقة النحو بحركة الإقراء متكاملة يجتبيها القارئ حين يعود إلى الأصل، فالأخوان لم يحصرا جهودهما في اختصاص ضيق؛ بل أحرزا تقدّما في جوانب أخرى من المعرفة كانت سعيها مدفوعا بحب هذا العلم الشريف.

3. الاتفاق القرآني للظواهر النحوية لدى القارئ

عمل حمزة والكسائي على إبراز الجانب المشرق من الظواهر النحوية، وضمتها إلى الجوانب الأخرى من التغيرات اللغوية، بين أيدي القراء ليستنبروا بها ويستفيدوا منها، إنّها نهضة قرائية نفيسة اتّخذها القارئان لدعم المستجدّات النحوية المنزهة من الهزء. وفي هذا الصدد نقف عند بعض الظواهر النحوية التي تميّزت بها مدرسة الكوفة للإقراء من خلال حمزة والكسائي لنعرف حقيقة الظواهر النحوية، ومدى مرونتها وملاءمتها للظروف التي نشأ فيها الفرش.

قال تعالى: (وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) البقرة 157 (قرأ حمزة والكسائي (يَطَوَّعُ) في الموضعين بالياء وتشديد الطاء وجزم العين، والباقون بالتاء وفتح العين)⁽²⁾ جزم المضارع لمن الشرطية الذي جعل (يَطَوَّعُ) فيه في موضع الجزم وياء الغيبة، لوجود (التاء) الرابطة للجواب الشرط، أصل الفعل يتطوع أدغمت التاء في الطاء، أمّا القراءة بالفعل الماضي فَإِنَّ (من) موصولة، والجملة في موضع خبر المبتدأ. وفي قوله تعالى: (وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) الأنعام 24 (قرأ حمزة والكسائي (وَاللَّهُ رَبَّنَا) بنصب الباء والباقون بخفضها)⁽³⁾ النصب هنا على النداء التقدير (يا ربنا) بحذف حرف النداء ودليل ذلك أنّ الآية استهلّت بمخاطبة الله المشركين بقوله (أَيُّنَ شُرَكَاءُكُمْ) فكان ردّهم على نمط سؤاله بخاطبتهم إياه فأجابوا بقولهم (وَاللَّهُ رَبَّنَا) أيّ والله يا ربنا ما كنا مشركين. أمّا القراءة بالخفض فعلى النعت للفظ الجلالة الله، أو على البدل.

وفي قوله تعالى: (قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) الأعراف 149 (قرأ حمزة والكسائي «لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا» بالتاء ونصب «رَبَّنَا»⁽⁴⁾ نصبا (ربّا) على النداء بمعنى (يا ربنا)، والتاء في الفعل خطاب لله فيه الدعاء والتضرّع مثل قوله تعالى: (ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) الإسراء 3 النصب على النداء أي يا ذرية من حملنا مع نوح فيه ترعيب على شكر الله وآلائه، أمّا الرفع على أنّ (ربنا) ففاعل فيه

(1). الأنباري، الإنصاف، ص 193. 194.

(2). الداني، التيسير، ص 288.

(3). نفس المرجع، ص 399.

(4). ابن مجاهد، السبعة، ص 294.

الإقرار بالعبودية، فمن انتابه الخوف أقدم على المواجهة فتكلّم مستقيلا من جرمه، ومن غلب عليه الحياء أجرى كلامه مجرى المستحي من الخطاب فنسب الفعل إلى الغائب. وعند قوله تعالى: (وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) يونس 44 (قرأ حمزة والكسائي (لَكِنَّ النَّاسَ) بكسر النون مخففة ورفع السين والباقون بفتح النون مشددة ونصب السين)⁽¹⁾ (لَكِنَّ) مخففة من الثقيلة وتكون للاستدراك، ولا تعمل، وكسرت النون لالتقاء ساكنين من ذلك قوله تعالى: (وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتِمَ النَّبِيِّنَ) الأحزاب 41 فرسول معطوفة على (أبا) في قوله: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ)، أو نصب لكان المحذوفة (ولكن كان محمد رسول الله). في هذا الموضع ليست عاطفة لأنها لم تجتمع الشروط الثلاثة المعروفة: منها أنّ المعطوف به ليس مفردا بل جاء بعدها جملة، لم تسبق بنفي أو نهي، ألا تكون مسبوقة بالواو مباشرة، أمّا إذا جاءت بعدها جملة فقد تسبق بالواو أو لا تسبق قال زهير:⁽²⁾

إِنْ ابْنٌ وَرَقَاءَ لَا تُخْشَى بَوَادِرُهُ لَكِنَّ وَقَائِعُهُ فِي الْحَرْبِ تُنْتَظَرُ

وردت بعد (لكن) جملة (وقائع تنتظر).

وفي قوله تعالى: (وَلْيَبْثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) الكهف 25 (قرأ حمزة والكسائي: (ثلاث مائة سنين)⁽³⁾ مضافا [غير منون]) اتّفق القارئان على قراءة مائة بغير تنوين مضافة إلى سنين، فجعلوا الجمع مكان الأفراد (الحجة من أضاف أنه أجرى بالإضافة إلى الجمع كالإضافة على الواحد، في قولك: ثلاث مائة درهم وثلاث مائة سنة، وحسن ذلك لأنّ الواحد في هذا الباب إذا أضيف إليه بمعنى الجمع، فحملا الكلام على المعنى، وهو الأصل، لكنه يبعد لقلّة الاستعمال، فهو أصل رفض استعماله)⁽⁴⁾ فإضافة مائة إلى سنين على أنّه تمييز للمائة، وورد جمعا، وذكر ابن مالك في ألفيته جوازها بقوله:⁽⁵⁾

و(مِئَةً، وَالْأَلْفَ) لِلْفَرْدِ أَضِفْ وَ(مِئَةً) بِالْجَمْعِ نَزْرًا قَدْ رُدِفْ

أمّا القراءة بالتنوين (سنين) فبدل من العدد عند من يرفض نصب تمييز مائة، ومن يجوّزه (فسنين) تمييز.

وفي قوله تعالى: (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ) الصافات 12 (قرأ حمزة والكسائي بضم التاء، قرأ الباكون بالفتح)⁽⁶⁾ ضمّ التاء تعود على الله، ولا يقصد حقيقة العجب، بل عن استعظام المعجب منه عندما أنكروا

(1). الداني، التيسير، ص 379.

(2). زهير، الديوان، ص 53.

(3). ابن مجاهد، السبعة، ص 390.

(4). القيسي، الكشف، 58/2.

(5). ابن مالك الألفية، ص 157.

(6). القيسي، التبصرة، ص 653.

البعث، واستهزأوا من القرآن الكريم، ولذلك جاء قوله تعالى: (وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ) الرعد 5 تعجب من إنكار منكري البعث. وورد في الحديث النبوي الشريف ما يؤيد ذلك ما رواه أبو هريرة أن الرسول ﷺ قَالَ: يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَفْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ: يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُقْتَلُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ، فَيُسْتَشْهِدُ⁽¹⁾.

هذا عجب الله كقوله تعالى: (وَأكِيدُ كَيْدًا) الطارق 16 وقوله كذلك: (وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُكْرِمِينَ) الأنفال 30 أما عجب الإنسان فعندما يرى ما لم يعلمه من قبل، ولم يعتده فينهر. القراءة الثانية بالفتح، فالخطاب إلى الرسول ﷺ والإعجاب مضاف إليه حين سخروا من الوحي.

كان اتفاق القارئ بالغ الغور، يدور في صميم علم القراءات، أبرز الظواهر النحوية بمنهج رفيع، منبعث من مرجعية علمية مؤصلة، لم تكن ضرباً من اللغو. تلاحت دروب الشيخين، وتلاقت مسالكهما على أرضية معرفية صلبة شدد بعضهما بعضاً للوقوف عند حدود اللغة ينبئ عن جهد مضني بذله الشيخان في خدمة علم القراءات. فكانت لجهودهما نفثات تفيض بالحيوية على أسس مدروسة واضحة المعالم استوحى الأخوان منها فرشهما.

4. التفرد القرآني للظواهر النحوية لدى كل قارئ

جمع القارئان في ذهنهما رصيда علميا متميِّزا يتأملان ويقلبان ما جمعا من ذخيرة معرفية على وجوهما متأنين مترئين، وهما في ذلك يسبران غورا ما بين يديهما من كلام العرب والخزين النحوي، فإذا بدا في رواية ضعف تركاها وإذا أحسا بلحن فضحاها، والاختلاف واضح في غير قليل مما وصل إلينا ومع ما ثبت، وكان لهذا الاختلاف أثره الفعال في تحريك العلماء خاصة النحاة لأنه كان تعبيرا عن اجتهدهما وإعرابا عن رؤيتهما الحافلة بالدلالات النحوية هذا نهج الرجلين ومن الإنصاف يقتضينا أن نقف عند صورة كل واحد منهما.

1.4. حمزة الزيات (158 هـ):

كان حمزة من أوائل القراء الذين جندوا أنفسهم لمهمة إرساء مذهب قرآني يكون وثيقة علمية تمتلك هويتها بوصفها كنزا من كنوز علم القراءات ومصدرا من مصادر الذخيرة النحوية. حرص على جلاء الوجه الحقيقي لعلاقة فرشته بالنحو، فراح يستند على النص القرآني وسنة الفصحاء اللذين يمنحان اجتهداه تمكين قراءته موقعها الريادي من القراءات المتواترة لتكون توثيقا لهذا التراث، وردا علميا على المنطلق الشعبي الذي طمع إلى طمس هذا الأثر العقدي.

من النماذج التي انفرد بها حمزة قوله تعالى: (إِلَّا أَنْ يَخَافَا) البقرة 227 "فقرأ حمزة وحده (يُخَافَا) بضم الياء، والباقون: (يَخَافَا) بفتح الياء"⁽²⁾ والفعل مبني للمفعول، ولم يسم فاعله العائد على الزوجين

(1). البخاري، الصحيح، ص 2826.

(2). ابن مجاهد، السبع، ص 283.

التقدير (إلا أن تخافوهما) هنا الخوف لغيرهما، يخافا بمعنى تيقّنا أو الظنّ المكروه، والفعل يتعدى إلى مفعول واحد، أمّا القراءة بالفتح فالفعل مسند للفاعل، وفي القراءتين التفتات الانتقال من الغيبة إلى الخطاب والعكس.

وفي قوله تعالى: (وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) المائدة 49 (قرأ حمزة بكسر اللام ونصب الميم وقرأ الباقون بإسكان اللام والميم)⁽¹⁾ اللام عند حمزة لام (كي) للتعليل، ونصب الفعل معنى: أنزلنا على عيسى الإنجيل لكي يحكم أهل الإنجيل، يعني عيسى، وجملة (وَلِيَحْكُمَ) معطوفة على (فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا) جملة حالية عطفت عليه جملة العلة، أمّا من أسكن اللام فباعتبارها لام الأمر وجزم الفعل. وفي قوله تعالى: (وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ) يونس 61 (قرأ حمزة برفع الراء فيهما، والباقون بفتحهما)⁽²⁾ الرفع هنا عطفا على كلمة مثقال (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ) لَأَنَّ (من) زائدة للتأكيد و(مِثْقَالٍ) فاعل (يَعْزُبُ) محلا ولم يلحقهما الخفض لأنّهما ممنوعتان من الصرف، أو تكون لا عاملة عمل ليس و(أصغر) اسمها فيه عطف جملة على جملة، أمّا القراءة بالفتح فإنّه مجرور على (ذَرَّةً) لم تظهر حركة الخفض لأنّه لا ينصرف على وزن (أفعل)، أو اسم لا النافية للجنس.

وفي قوله تعالى: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِينَ) إبراهيم 24 (بمصرحيّ كسر الياء حمزة وفتحها الباقون)⁽³⁾ الكسر أراد التخلص من التقاء الساكنين، وكسر حمزة أرد البناء لا الإعراب، وحجّته أنّ العرب تكسر لالتقاء الساكنين وأنشد في هذا قول الأغلب العجلي:⁽⁴⁾

قَالَ لَهَا هَلْ لَكَ يَا تَا فِيٍّ قَالَتْ لَهُ مَا أَنْتَ بِالْمُرْضِيِّ

هذه القراءة كانت سائدة عند بعض قبائل العرب كبنو عجل التي ينتمي إليه الشاعر الأغلب العجلي، أمّا القراءة بالفتح فأصل الكلمة مصرحي بياءين: الياء الأولى ياء جمع المذكر السالم والثانية ياء المتكلم، فأدغمت الياء الأولى في الثانية ثم حركت ياء الإضافة بالفتح للتخفيف، وتخلصا من توالي ثلاث كسرات. وفي قوله تعالى: (هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ) لقمان 2 (قرأ حمزة (هُدًى وَرَحْمَةً) بالرفع ونصبها الباقون)⁽⁵⁾ لهذه القراءة أكثر من تخريج منها أنّها خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو) أو (هدى) مرفوع على الابتداء و(للمحسنين) شبه جملة متعلّق بخبر محذوف أو خبر ثانٍ لاسم الإشارة (تلك)، أمّا القراءة بالنصب فعلى الحال من الكتاب (وإذا كان «الكتاب» مضافا إليه فمسوغ مجيء الحال من المضاف إليه

(1). ابن الجزري، النشر، 254/2.

(2). القيسي، الكشف، 410/1.

(3). ابن مجاهد، السبعة، ص 364.

(4). الفراء، معاني القرآن، 75/2.

(5). ابن غلبون، التذكرة، 496/2.

أن «الكتاب» أضيف إليهما هو اسم جزئه، أو على أنه حال من آيات. والعامل في الحال ما في اسم إشارة من معنى الفعل).

أحيا حمزة ظواهر بقايا الفصاح فلا تقع عينه على لغة العرب إلا انقاد إليها فوجد لكل حركة من الحركات أو فعل من الأفعال صورة مناسبة، وهذا هي عبقرية مما أدى به إلى إبراز نواذر المفردات. إنها صورة للحركة القرائية وانعكاس للمنظومة اللغوية، هيأ ذخيرته النحوية لينافح عن أصول هذا علم ويثبت له أصالته.

2.4. الكسائي (189 هـ):

كان الكسائي واضح المقاصد في قراءته، كل ما يطمح إليه هو أن يقنع المتلقي بسلامة قراءته وقوة حجته، لذا كان فهم قراءته بحاجة دائمة إلى التركيز لاكتشاف العلائق الداخلية التي تربط أجزاء النص لأن المستوى النحوي يعدّ محوريا لا يمكن النظر إليه بمعزل عن مكونات شخصيته وفلسفته اللغوية. فاختيار الظواهر النحوية يغري أهل الإقراء بأن يلتمسوا بواعث النابعة من تركيب فرشته، وتجلي نواحي قوته، فإذا صرف ذهنه إلى النحو تأتية المعاني إرسالاً وتنثال عليه الشواهد انثيالاً، سنحاول أن نبين موقع هذه الظواهر من قراءته.

في قوله تعالى: (وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ) المائدة 47 (قرأ الكسائي وما بعدها بالرفع)⁽¹⁾ الرفع هنا على الابتداء والخبر (وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ)، أو الرفع على الاستثناء، لكن يمكن ربط والعين على المضمر المرفوع في النفس، والتقدير (أنّ النفسَ بالنفس هي العين) أمّا من قرأ بالنصب فعطف على اسم أنّ (النفس). قال تعالى: (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ) المائدة 114 (قرأ الكسائي بالتاء ونصب «ربك» وقرأ الباقر بالباء ورفع (ربك)⁽²⁾ التاء مخاطبة فاعل و(ربك) مفعول به، التقدير (هل تسأل لنا ربك)، في هذه القراءة مخاطبة الحوارين لعيسى عليه السلام، وفي الخطاب إجلال لله تعالى، وتعرّض على أنّ عيسى يستطيع السؤال، والحواريون أدرى بقدرة الله على ذلك، أمّا القراءة بالرفع (ربك) ففاعل لأنهم على علم بقدرته فلفظه استفهام، ومعناه الطلب والسؤال.

وفي قوله تعالى: (مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرُهُ) هود 50 (قرأ الكسائي بجر الراء حيث وقع، ورفعها الباقر)⁽³⁾ جرّ (غير) على الصفة للكلمة (إله) لسبب حرف الخفض الزائد (من)، ولم ترد للاستثناء. وقرأ بها عدّة قراء منهم أبو جعفر المدني (128 هـ)، أمّا القراءة بالرفع فعلى النعت (لإله) المبتدأ المجرور بالخافض الزائد المؤكّد قال تعالى: (هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ) فاطر 3.

(1). الداني، التيسير، ص 334.

(2). ابن مجاهد، السبعة، ص 249.

(3). ابن غلبون، التذكرة، ص 342.

وفي قوله: (أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ) هود 67 (قرأ الكسائي بكسر الدال مع التنوين وقرأ الباقون بغير تنوين مع فتحها)⁽¹⁾ منع صرف كلمة (ثمود) إلّا الكسائي إذ جعلها اسما للحي، ونوّنه لقربه من الاسم الأول حيث قال: (إنما أجريت الثاني لقربه من الأول استقبح أن ينون اسما واحدا ويدع التنوين في آية واحدة ويخالف بين اللفظين)⁽²⁾ أمّا من منعه من الصرف فجعله اسما للقبيلة.

وفي قوله تعالى: (وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِلزُّوْلِ مِنْهُ الْجِبَالُ) إبراهيم 48 (قرأ الكسائي لِيَزُولَ) بفتح اللام الأولى وضم الثانية، وقرأ الباقون بكسر الأولى وفتح الثانية)⁽³⁾ على (إن) مخففة من (إنّ)، واللام فارقة، وعند الكوفيّين أنها نافية واللام بمعنى (إلا)، أمّا القراءة بكسر اللام وفتح الثانية «إنّ» فنافية بمعنى «ما» و«اللام» لام الجحود بمعنى ما كان مكرهم لتزول منه لجبال)⁽⁴⁾.

إنّ التقدّم الذي أحرزه الكسائي في علم القراءات يقتضي معرفة صحيحة بكثير من القواعد العلمية ممّا أثمر في كشف ذخيرة لغوية نفيسة متنّ الأصالة للتراث القرائي، وزعزع اللحن والشاذ. فعمله كان عظيما في فتح الطريق في هذا الميدان الوعر، يؤدي إلى سعة النظر وتحديد في المعرفة، وتقديم صورة فيها تنويه بهذا العلم ومكانته من العلوم القرآنية. رسم الشيخ مثلا عليا في صياغة متميّزة في الظواهر النحوية أوجد لها دوافع قوية واتجاهات معيّنة تقوم على العلم والإدراك.

5. خاتمة

اجتهد القارئان على استكمال معالم مدرستهما حتى يطمئن القارئ إلى جودتهما، ويستأنس بنور كياستهما، فوظفا أدواتهما المعرفية المتيسرة لديهم بروح مبدعة، وإيمانا منهما بأهمية الظواهر النحوية نضجت فاعليتهما إلى حدّ الإقرار بوجوب الارتقاء بها لتكون بمثابة جسارة من نباهتهما لتوجيه النص إلى مقاصده.

فالرجلان كان عالمين بالقراءات متضلعين لسنة الفصحاء ناظرين إلى المنطق، فهما ينقلان القارئ من تراث متقد بالعلوم والفحول إلى حقل يزخر بمباهج العلوم تضمّنت مسائل منيرة ومثيرة، تكشف عن جوهر الإعجاز اللغوي في كتاب الله.

1.5. النتائج:

- إنّ منطق التدوّق تمدّه تجربتهما الثرية في مجال الإقراء، ومن هنا كانت مسؤوليتهما ثقيلة للنهضة بالحركة القرائية في أفضل منزلة.
- هذا الاختيار يعكس نباهة القارئين والمتوجّهة بعناية فائقة إلى الإبداع الذي ينبئك ببراعتهما، فهو يمثل صدقا جليا في قراءتهما، يتحسس القارئ من خلالها تعلّقهما بعلم القراءات.

(1). ابن الجزري، النشر دت، 2/290.

(2). ابن زنجلة، حجة القراءات، ص 345.

(3). القيسي، التبصرة، ص 559.

(4). ابن جني، الخصائص، 1/366.

- منح الكوفيان الظواهر النحوية أهمية أعظم شأنًا وأبقى أثرا، بني على قاعدة مؤصّلة، بلغ من الإتقان والدقّة والاستيعاب حدا كبيرا.
- همّتهما سمت إلى رفع المستوى القرآني إلى طراز مرموق يتقطّر لذّة في قراءتهما المباهج التي ينغمر فيها القراء.

2.5. التوصيات:

- الالتزام بالاستقراء العميق للظواهر النحوية والتغلغل إلى لبّها، والتقلّب في مناحيها للاستمتاع بلطائفها.
- العودة إلى حظيرة علم القراءات الأصيل للتأكيد على غزارة الإنتاج القرآني، وسعة الذخيرة التي يكتنزها القارئ.
- استظهار ملكة القراء لتنشئة الذوق القرآني السليم، والعمل على توسيع دائرة الحركة القرآنية، والرفع من البحوث حولها.
- الاهتمام بالبحث القرآني النظري والتطبيقي، وترشيد الباحث إلى الاقتراب من لغة القرآن.

6. قائمة المراجع

- البخاري، أ، ع. (1423). الصحيح. دمشق: دار ابن كثير.
- أبو البركات الأنباري. (1912). الإنصاف في مسائل الخلاف. ليدن هولندا: بريل.
- البنا، أ. ب. (د.ت). إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر. بيروت: دار الندوة الجديد.
- ابن الجزري، م. أ. (د.ت). النشر في القراءات العشر. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن جني، أ. أ. (1406). المحتسب. (ع. أ. شلي، القاهرة: دار سزكين.
- الداني، أ، ع. (1436). التيسير في القراءات السبع. السعودية: دار الأندلس.
- ابن زنجلة، أ. ز. (1418). حجة القراءات. (س. الأفغاني، مؤسسة الرسالة.
- زهير، أ. أ. (1408). الديوان. بيروت: دار الكتب العلمية.
- سيبويه. (1408). الكتاب. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- ضيف شوقي. (1119). المدارس النحوية. القاهرة: دار المعارف.
- ابن غلبون أ، ح. (1412). التذكرة في القراءات الثمان. (أيمن رشدي سويد، المحرر).
- الفراء، أ. ز. (1980). معاني القرآن. بيروت: عالم الكتب.
- القيسي، أ. م. (1430). الكشف عن وجوه القراءات. (م. أ. رمضان، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- القيسي، أ، م. (1402). التبصرة في القراءات السبع. الهند: دار السلفية.
- ابن مالك، م. ب. (1428). ألفية ابن مالك. (ع. أ. العيوني، الرياض: مكتبة دار المنهاج.
- ابن مجاهد، أ. ب. (د.ت)، السبعة في القراءات. مصر: دار المعارف.
- المخزومي مهدي. (1377). مدرسة الكوفة، الطبعة الثالثة. مطبعة مصطفى الباي الحلبي وأولاده.
- ابن يعيش. (د.ت). شرح المفصل. مصر: إدارة الطباعة المنيرية.

7. Bibliography List

- Abu Abdullah al-Bukhari. (1423). Al-Sahih. Damascus: Dar Ibn Kathir.
- Abu al-Barakat al-Anbari. (1912). Al-Insaf fī Masa'il al-Khilaf. Leiden, Netherlands: Brill.
- Abu Amr al-Dani. (1436 AH). Al-Taysir fī al-Qira'at al-Sab'. Saudi Arabia: Dar al-Andalus.
- Al-Banna, A. B. (n.d). Ithaf Fudala' al-Bashar fī al-Qira'at al-Arba' Ashar. Beirut: Dar al-Nadwa al-Jadid.
- Al-Farrā', A. Z. (1980). *Ma'ānī al-Qur'ān*. Beirut: 'Ālam al-Kutub.
- Al-Makhzūmī, Mahdī. (1377). *Madrasat al-Kūfah* [The Kufa School], 3rd ed. Mustafa al-Babi al-Halabi & Sons Press.
- Al-Qaysi, A. M. (1402). *Al-Tabṣīrah fī al-Qirā'āt al-Sab* * [Insight into the Seven Quranic Readings]. India: Dar al-Salafiyyah.
- Al-Qaysi, A. M. (1430). *Al-Kashf 'an Wujūh al-Qirā'āt* [Unveiling the Aspects of Quranic Readings]. (Ed. M. A. Ramadan). Beirut: Mu'assasat al-Risalah.
- Dayf, Shawqī. (1119). *Al-Madāris al-Naḥwiyyah*. Cairo: Dār al-Ma'ārif.
- Ibn al-Jazari, M. A. (n.d). Al-Nashr fī al-Qira'at al-'Ashr. Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyya.
- Ibn Ghalbūn, A. Ḥ. (1412). *Al-Tadhkirah fī al-Qirā'āt al-Thamān*. (Ayman Rushdī Suwayd, Ed).
- Ibn Jinni, A. A. (1406). Al-Muhtasib. (A. A. Shalabi, Cairo: Dar Sezgin.
- Ibn Mālik, M. B. (1428). *Alfiyyat Ibn Mālik* [Ibn Malik's Thousand-Verse Poem]. (Ed. 'A. A. al- 'Uyūnī). Riyadh: Dar al-Minhaj Library.
- Ibn Mujāhid, A. B. (n.d). *Al-Sab 'ah fī al-Qirā'āt* [The Seven Quranic Readings]. Egypt: Dar al-Ma 'arif.
- Ibn Ya 'īsh. (n.d). *Sharḥ al-Mufaṣṣal* [Commentary on *al-Mufaṣṣal*]. Egypt: Al-Muniriyyah Printing Administration.
- Ibn Zanjalah, A. Z. (1418). The Proof of the Readings. (S. Al-Afghani, Al-Risalah
- Sībawayh. (1408). *Al-Kitāb*. Cairo: Al-Khanji Library
- Zuhair, A. A. (1408 AH). The Collected Poems. Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyya